استعراض موجز لكتاب عالم السبئيات الروسي افرام لوندين ، والذي يحمل عنوان : دولة مكربي سبأ ((الأيبونيم السبئي)) موسكو دار العلم 1971

د. مهيوب غالب أحمد *

لا يعد كتاب لوندين : دولة مكربي سبأ " الأيبونيم السبئي " حجر الزاوية في كل المؤلفات الشرقية والغربية المكرسة لتاريخ جنوب شبه الجزيرة العربية فحسب بل يكاد يكون تقريبا المرجع الوحيد في هذا الميدان الذي اكتشف فيه نظرية نظام الحكم في مملكة سبأ (الأيبونيم السبئي)، التي يعود إليها كل المختصين بشؤون السبئيات ، ولم تدحض أو تعدل الى الآن _ مع تحفظ كاتب هذه السطور على بعض ما جاء في بعض جوانب الكتاب الأخرى _ . وقد كرس المؤلف جهوده لدراسة الحضارة اليمنية القديمة إذ حدد فيه طبيعة بناء المجتمع الطبقي الذي ظهر في تلك المرحلة التي درسها وكيفية تشكل الدولة فيه . وقد افرد في الكتاب حيزاً كبيرا لكرونولوجيا[1] الدولة السبئية التي بنيت لأول مرة على أساس أنظمة وضع التواريخ التي استخدمها السبئيون أنفسهم . ويستجلي (الكاتب) نشوء نظام الدولة في سبأ على مدى خمس مائة عام وألف .

في المقدمة لفت لوندين الانتباه الى عدم التطابق بين المادة التي عثر عليها من خارج اليمن ، وقرأها فيما يخص تاريخ شبه الجزيرة العربية ، والتي أضفت هالة أسطورية حول ثراء اليمن وغناها فضلا عما وجده من وثائق في اليمن ذاتها . ولاحظ أن هذه المنطقة بظروفها المناخية تشبه مصر وبلاد ما بين النهرين ، ومع ذلك لا يلمس المؤرخون بحسب اللقى الأثرية أن مجتمع العربية الجنوبية (اليمن القديم) كان متطورا .

---

* رئيس قسم التاريخ / كلية الآداب / جامعة ذمار .

ويشـــير لوندين الى أن فريقا من الباحثين يرجع ابجدية العربية الجنوبية الى اللغة السينائية ، تلك الأبجديـــة التي دونت على امتداد القرن الخامس عشر ق.م . وهو ما يشهد _ بحسب ذلك الفريق _ عن مـــيلاد الحضارة اليمنية القديمة في منتصف القرن الخامس عشر ق . م ، مع أن استنتاجاتهم أولية ولم تدعم بشكل نهائي بوثائق تاريخية. كما يرى المؤلف هنا انه ربما يجري الحديث أما عن شرح مغلوط للآثار العربية الجنوبـــية ، وأمـــا عن أوضاع عامة غير كاملة وغير مضبوطة ، وهذا ما يؤكد أهمية دراسة مشكلة تاريخ الشرق الأدنى القديم ، وربما تاريخ العالم القديم بأكمله .

وبمعالجـــة وضع التطور الحضاري العام يتأكد للمؤلف ، أن الوضع الجغرافي لسبأ لا يمكن إدراجه ضـــمن الرسم العام لهذه العملية ، نظرا لخصوصية سبأ في إطار خصوصية بلاد العرب الجنوبية ذاتها . كما يشـــير لوندين إلى أن تحليل موضوع تاريخ الدولة السبئية بالنسبة لليمن القديم يسهل دراسته بالارتباط بـــالجيران المـــتطورين في مـــنطقة الهلال الخصيب ، مع أن بدايته كانت متأخرة . على أن وجود الكتابة (الوثـــائق المكتوبة) ربما سهل دراسته بالارتباط بالجيران المتطورين في منطقة الهلال الخصيب ، مع أن بدايته كانت متأخرة . على أن وجود الكتابة (الوثائق المكتوبة) ربما سهل دراسة هذا الموضوع من كافة جوانبه.

تكمن أهمية المادة الوثائقية العربية الجنوبية في أنها تتمحور حول بحث القضايا النظرية المطروحة ، مـــثل ظهـــور المجتمع الطبقي وقيامه وما ارتبط به من مشكلات أخرى . ويلفت الكاتب نظر المهتمين إلى ضـــعف دراسة هذه القضايا : مثل غياب الاستنتاجات العامة بنظام تصنيف تواريخ الأحداث وأزمنة تطور مراحل المجتمع ، وعدم دراسة التاريخ الاقتصادي / الاجتماعي . ويبرز المؤلف هنا صفتين متميزتين للوثائق التاريخية بالنسبة لسبأ ؛ الأولى : غياب المصادر الأجنبية ، والثانية : غياب الوثائق الاقتصادية والعملية . إن المصـــدر الوحـــيد المهم المتوافر الآن هو المادة الأبيقرافية[2]. ويشير لوندين إلى أن الترتيب الزمني هو أهم صـــفة لهـــذا الـــنوع من المصادر . وينوه الكاتب أيضاً إلى أن قيمة هذا النوع من المصادر تكمن في دقة معلوماتهـــا ، كمـــا أن المصـــطلحات التي تحويها غير مشروطة ، وصحتها تصل إلى 100% ، كما تغيب الأخطـــاء في هذه الوثائق عملياً ومن ثم يكون التحريف غير ممكن فيها فيما بعد . غير أن تلك المعلومات الـــتي تحتويها النقوش لا تـــنفي أنها مختصرة جداً وبذلك فمن غير الممكن عمل استنتاجات عن الأحداث المعطـــاة هـــل هـــي قاعدة أم استثناء ، خاصة إذا كانت دراسة تاريخ الدولة السبئية " الأيبونيم السبئي " تتـــناول فقـــط المرحلة المبكرة من وجود تلك الدولة وبالتالي المرحلة الأولى من تاريخ بلاد العرب الجنوبية عموماً . ويشير لوندين إلى الصعوبة في فرز الترتيب الزمني لهذه الحقبة الزمنية .

إن أولى مهـــام الكاتب هي تحديد تلك الوضعية التي هي مثار البحث ، والتي ستسمح له بإيضاح المواضـــيع الأساســـية لـــلمرحلة الأكـــثر قدماً في تاريخ سبأ ، وهي مواضيع كرونولوجيا النظام السبئي

والعلاقات الاقتصادية / الاجتماعية . ويرى لوندين أن أكثر المصادر مناسبة التي تفي بمعظم المطالب هي : الأيبونيم السبئي .

يعرف الأيبونيم السبئي بأنه النظام المستخدم أو الذي استخدم من أجل وضع (أو إقرار أو تثبيت) ترتيب وتتابع للأحداث ، ولكنه أيضاً أسلوب وضع تاريخ بأسماء أشخاص يؤدون وظائف مختلفة ، اقتصادية ، دينية وإدارية في الوقت نفسه . لذلك فالأيبونيم السبئي هو مفتاح المشكلة لكل تاريخ سبأ . وهو يعطي إمكانية تجميع كل المواد والمواضيع المتفرقة الأخرى . كما أن دور ذلك الأيبونيم قد حتم على الكاتب ضرورة جمع مادة دراسته بالتفصيل . فضلاً عن أن لوندين يعطي توضيحاً كاملا عن مراحل تأليف الكتاب . وهو يفرز في كل مرحلة منها القضايا التي حلها ، وكذلك يشير إلى المساعدات التي قدمها الآخرون له من أجل استكمال عملية التأليف وبالذات من ريكمانس وويسمان وخليل يحيى نامي وغيرهم.

وفي الفصل الأول من الكتاب يعطي المؤلف مصدرين في تاريخ سبأ هما : صيغة النقوش المؤرخة أولاً وكشف الأيبونيم ثانياً . وقد شغلت النقوش التي حللها من مجموعة جلازر حيزاً كبيراً في هذا الفصل ويشير لوندين إلى أن كل مقاطع النصوص لا يمكن أن تكون قد جمعت دفعة واحدة ، إلا أنه من الواضح أنها تنتمي إلي مجموعة نقشية واحدة . ويتحدث الكاتب عن الصعوبة التي واجهها في أثناء فك رموز النقوش التي أصابها التشويه بسبب عبث الإنسان بها وكذلك عدم الوضوح في الكتابة بسبب ذلك التشويه. وفي الأخير تبين من سياق البحث والتحليل والاستقراء أن مجموعة لا بأس بها من تلك النقوش لم تحفظ نهائياً كنتيجة للتدمير الذي حدث لها . لذلك فإن النظرة العامة إلى المادة الأثرية لا تعطي انطباعاً عن تتابع النقوش ، ومن ثم فإن قانونية (ترتيب) وضعها تبقى غير واضحة . ولا يرى لوندين ضيراً من قبول النصوص البارزة المكتوب في أعلى كشف (الأيبونيم) التي يتوقع أنها كتبت قبل النصوص السفلى مع وجود استثناءات في ذلك . إن وحدة المادة الأثرية تسندها وحدتها الصياغية ، بمعنى انتماء النقوش الداخلة فيها إلى وحدة بليوغرافية واحدة (نمط خطي واضح وواحد) . وبعد ذلك فإن لوندين يعطي وصفاً لهذه المادة الأثرية ويؤكد وحدة محتوياتها . ويصف الكاتب النقوش باعتبارها شاهداً أثرياً واحداً مزبورا على الصخر ، والتي تتشكل من نقوش مختلفة الأوقات[3] وقد صيغت على نمط واحد وتحوي جوهراً متشابهاً كنقوش نذرية مثلاً .

وعلى أساس دراسة تلك الصياغات يصل الكاتب إلى استنتاج أن كل التأكيدات تدل على الاعتقاد بأن هذا الشاهد الاثري هو عينة كشف الايبونيمات السبئية التي تعود إلى قبيلة خليل (أحدي أكبر ثلاث قبائل تعاقبت على حكم سبأ طيلة ما يقارب الألف سنة) . وقد أولى الكاتب فيما بعد أهمية كبيرة لقضية أسماء الايبونيمات السبئية .

مـــن خـــلال بحث نقوش القرون الثلاثة الأولى للميلاد ، يبرز لوندين علائم معينة خاصة بالنسبة للنقوش كلها ، ويعمل استنتاجا عن أهمية بحث خصائص الأسماء في هذه النقوش ولغتها شرطاً من أجل فهم عدة جوانب للايبونيمات السبئية ، وكذلك فهم الحضارة اليمنية القديمة وتاريخها . هذا فضلاً عن اهتمامه بفـــرز وتحليل النقوش التي تتناول المراسم الملكية ، وبالذات تلك التي تخص التنظيم الحكومي – التشريع والاقتصاد – في مملكة سبأ ، ويصنفها على أساس أنها مراسيم (نقوش) حقوقية (قوانين) .

في الفصـــل الثاني من الكتاب يولي المؤلف أهمية خاصة لمشكلة بحث الايبونيمات السبئية العامة . وهـــنا يلامس لوندين قضية ترابط المجموعات العشائرية – القبلية والايبونيم السبئي . ويصل الكاتب إلى استنتاج مؤداه وجود تزامن واضح في نظام التقويمات المستخدمة في كل أراضي الدولة . وعلى أساس هذه الفرضية يستنتج المؤلف أنه كان في سبأ نظام عام للايبونيمات .

وبمقارنـــة الايبونيم السبئي مع المعينيين والقتبانيين يوضح لوندين إمكانية وضع تقويمات للنقوش حســـب الايبونـــيم ، ويصـــل إلى استنتاج أن فترة الأيبونيم في سبأ هي سبع سنوات على الأكثر . وعلى أســـاس تحلـــيل سلسلة أنساب قبيلة خليل ، يؤكد الكاتب أن كشف الايبونيم وضع بحسب نظام شجرة الأنساب مع أنه ليس عاماً بالنسبة للكشف عن الكل ، أي للكشف عن سلسلة أنساب مختلف قبائل سبأ، فضـــلاً عن الكشف عن مختلف الدول اليمنية القديمة . ولقد أثبت لوندين أن منصب الايبونيم ينتقل من الأب إلى الابن وأن المنصب يعود إلى القبيلة نفسها أو العشيرة بعد واحد وعشرين عاماً ، أي خلال ثلاث دورات للايبونـــيم وعلى هذا الأساس يعمل استنتاجاً على أنه في نظام الايبونيم السبئي العام كان يجب أن تشـــارك في الحكم ثلاث قبائل . وكانت تلك القبائل برأي لوندين هي ذو حزفر كبير خليل وذو حذمت وذو فضحم .

وفي الفصـــل الثالـــث يحاول الكاتب أن يبرز حقوق الايبونيم (ربما المقصود صلاحياته) كما يعير اهـــتماماً لمعطيات الكرونولوجيا لكشف الايبونيم ، وذلك من أجل وضع تاريخ للأحداث المحددة . مع ان لوندين يحاول تحديد كرونولوجيا عامة فقط للكشف العام ، ويؤسس استناداً للمعطيات البليوغرافية [4]، ومـــنهج شجرة الأنساب والأبيقرافيا . على أن نطاق الكشف العام يتحدد بحوالي (600–700عام) . في أثناء ذلك فإن الحدود الدنيا يمكن أن تكون عام 1050-950 ق.م .

وبحـــث المصـــادر القديمة للبلدان الأخرى يشير لوندين إلى أن الدولة السبئية كانت معروفة في القـــرن الســـابع ق . م في بلدان الشرق القديم مثل آشور . وتؤكد المصادر الأولية الأجنبية التقويم الذي وضعه لوندين .

وبتحلـــيل كشـــف ايبونيم عشائر ذو فضح وذو حذمت وذو حزفر كبير خليل ، يضع المؤلف اللائحـــة العامـــة للايبونيم السبئي محللاً إياها باعتبارها إمكانيات لفحص الاستنتاجات التي وضعها . ولا

يكتفي باحصاء أسماء الأعلام (أسماء الحكام وبعض الموظفين) للايبونيم ، بل لعدد العناصر الواقعية المعروفة والتي كان لها تأثير في سير الأحداث آنذاك ومذكورة بالكشف العام .

في الفصل السرابع (نظام الحكم في سبأ): يبحث الكاتب وظائف الايبونيم السبئي .. ويصف العاملين فيه بوصفهم موظفين حكوميين أو قبليين ، والذين لعبوا دوراً مهماً في جهاز الإدارة . وعند تحليل نقش جلازر 1691 [5] يبرز لوندين الوظيفة الدينية للايبونيم . كما أن النقوش تظهر أنه ربما كان الايبونيم من سلالة المشائخ (الوجهاء) أو الابن الأكبر للايبونيم السابق . وبذلك تتمثل الوظائف الدينية للايبونيم بشكل محدد في تنفيذ الخدمات للإله عشتار في معابد محددة ، والمشاركة في طقوس التسميات (الدعوات – التعاويذ) وكذلك متابعات التقويم . ومن الناحية الأخرى فإن مصطلح sb / ttr^{e} في العبارات الآتية يتكرر في عدت صفحات (138، 146.....الخ) كما يأتي :

Ywm / v^{c}sw / ttr^{e} / sb

Ywm / sqy / ttr^{e} / sb

.....wsqy / ttr^{e}

إذ تقابل في هذا المصطلح (Ywm / sqy / ttr^{e}) عادة الإشارة التالية : " عندما يقوم الكاهن بخدمة الإله عشتار " . وتبرز هنا كونها مهمة دينية في مقدمة واجباته ، ومن ثم بقية المهام تتكرر مراراً باعتبارها إضافات إليها . لذلك فإن هذا المصطلح هو بالضبط يعكس أساس واجبات الايبونيم ، فضلاً عن أنه يتكرر في حوالي 14 نقشاً ، وعلى أن ذلك لاينفي أن الايبونيم لم يمارس مهاماً أخرى بل على العكس فقد أدى دور المشرف على الاقتصاد الزراعي والحرفي في حدود ممتلكات المعبد وربما أبعد من ذلك . ومارس الايبونيم أيضاً مهام إدارة ملكية الأراضي .

وبحصر مهام المكربين (حكام سبأ الأوائل) يبرزها المؤلف هنا : بمهام البناء أي تشييد المباني الحكومية والمعابد وقنوات الري والمباني الدفاعية العسكرية . كما نفذوا أيضاً مهام تقديم القرابين للآلهة وأقاموا الطقوس الدينية وبذلك كانت المهام الأساسية للمكاربة دينية وحكومية وسياسية ، أي أنهم قاموا بالاشتراك في الحملات العسكرية وإصدار المراسيم والقوانين . كما أن الكاتب يقف عند مقارنة مهام المكاربة والايبونيم ، ويصل إلى استنتاج عن تماثلها الوراثي ، وكذلك دخولهم ضمن نظام موحد لإدارة البلد . فضلاً عن ذلك فإن وضوح الانسجام الكامل لهذا النظام والطبيعة المتماثلة لمهام الموظفين في مختلف المراتب والفئات يتطابق مع التحديد الدقيق لحجم وواقعية محتوى الوظائف . وقام فيما بعد في وظائف مهمة ، بحثها المؤلف وهي تنسيق العلاقة بين المهام الرسمية والمهام الدينية (أي بين الملك والمكرب) ودرس العلائم البليوغرافية للنقوش في هذا الصدد ..

الهوامـــش :

(1) : كرونولوجيا : تعني تصنيف مراحل التاريخ ، وأحيانا يستخدم بعض الباحثين عبارة نظام الترتيب الزمني .

(2) : الابيقرافية : تعني دراسة النقوش . والمقصود هنا فك رموز النقوش لتصبح مادة جاهزة للتحليل والدراسة.

(3) : أغلـــب الظـــن أن المجموعة النقشية التي عالجها هنا لوندين قد تم العثور عليها في مكان ربما مكانا عاما مخصصا لزبر النقوش كلما كانت هناك ضرورة أو حاجة . إضافة إلى ذلك وربما كان هذا الصخر موجودا عند ملتقى طرق يستطيع أكبر عدد من الناس مشاهدته وإذا ما أضيف إلى أنه هو كشف الايبونيم فمعنى ذلك أنه سجل الحكومة السبئية العام آنذاك .

(4) : البليوغرافيا : علم يدرس تطور الخط – شكل الحروف ، طريقة كتابتها وقواعد تلك الكتابة .

(5) : المجموعة النقشية التي نشرها ادوارد جلازر سميت باسمه مثل GL. 1،2،3 وهكذا .